الكاتب: Administrator
الخميس, 17 تشرين2/نوفمبر 2011 20:36 - التحديث الأخير الإثنين, 26 كانون1/ديسمبر 2011 10:24

حفار القبور
ما الذي يريده فتحي عبد الرحمن؟

عدنان هنيدي
لا أغالي إن قلت أنني دهشت وأرهقت عند مشاهدتي عرض مسرحية حفار القبور لفتحي عبد الرحمن في قصر ثقافة رام الله. لم أقوَ على مغادرة المسرح ولم أفكر بذلك. طوال ثمانين دقيقة تابعت إبداع الممثلين والتقنيين، وتابعت الفضاءات المليئة بالأقمار والشموس، والدهاليز الرطبة والمعتمة التي كان يأخذنا إليها فتحي عبد الرحمن بسلاسة ومغافلة، وكأنه يريد أن يقول لنا، في النهاية ستكتشفون إلى أين أخذتكم.

قبل ذهابي لمشاهدة العرض ذهبت مع الانترنت باحثاً عن بدر شاكر السياب وقصيدته حفار القبور. قرأتها بتأمل وذكرتني بالعديد من النصوص والروايات التي تحمل ذات العنوان (حفار القبور). ذهبت مع إنسانية وفلسفة السياب في قصيدته، وهيأت نفسي لمشاهدة العرض. طوال الطريق إلى المسرح وأنا أسأل كيف ستتحول القصيدة إلى مسرحية وحركة، وبأي اتجاه سيأخذنا معدّ المسرحية (حازم كمال الدين) ومخرجها فتحي عبد الرحمن؟

انتهى العرض وغادرت مقعدي وقصر الثقافة. لم أشعر بثقل جسدي كما شعرت به وأنا أغادر مقعدي، لم أشعر بإرهاق الدماغ كما شعرت وأنا أتأمل ما شاهدت فوق الخشبة.

حفار القبور لم يكن مجرد إنسان هامشي، شخص من قاع المجتمع.. لم يكن ذلك الفيلسوف الشكسبيري الذي يذكر الناس بوقتية الإنسان وسرعة عطبه وفناءه.. لم يكن واعظاً يذكر الناس بخطاياها ويحضها على التوبة أو التراجع عن شرورها وضعفها.. لم يكن شخصية واقعية تمتهن تلك المهنة الصعبة من أجل الثواب أو من أجل لقمة الطعام. الإعداد والإخراج أحالا حفار القبور إلى طاقة مرعبة للضعف الإنساني.. إلى ضمير تهرّأ حتى أصبح مليء بالندوب والثقوب والأورام تلتهم كل ما يصادف طريقها.
ما عادت عملية الحفر والدفن هي الفعل الذي يرسم صورة هذه الشخصية البائسة، ولم تعد تلك الشخصية مجرد شخصية بائسة تتعيش على موت الآخرين. المخرج مارس قسوة فكرية وجمالية كبيرة عندما ترك تلك الشخصية تتحول أمام مسامعنا وأبصارنا من شخصية تستحق الرثاء والعطف إلى شخصية تطفح بطاقة شر سوداء إلى شخصية يموت ضميرها وتفقد إنسانيتها وتتحول إلى وحش مرعب لا يقيم وزناً لآدميته وإنسانية الآخرين.. تكره هذا الحفار، تكره ضعفه، وتقلباته المرعبة، وتحوله إلى طاقة عمياء تقودها قوى الشر والعدوان والدمار. حفار القبور تحول بين يدي المخرج من شخص بائس إلى رمز لكل من يتواطئ ويقبل بقتل الآخرين.. لمن يقبل بالحروب العدوانية والعبثية.. لمن يبيع ضميره وإنسانيته مقابل ثمن بخس.. لمن يوافق على الاقتتال بين الأخوة، ويستجدي أسياده بعض الفتات والأوهام.
وأنا أشاهد حفار القبور على الخشبة، كانت تمر بخيالي صور كثيرة لأمراء الحرب، لجنرالات الخراب، لمن أعمى التعصب بصائرهم، لمن دمرت إنسانيتهم شهوة السلطة والحكم والسيطرة والنهب والسلب والطغيان.
حتى الهيئة التي ظهر بها الممثل الذي لعب الدور، كانت مقنعة إلى حدٍ بعيد بأن هذا البائس المسكين قادر على أن يصبح رجلاً أسود الضمير طاغية ورمز للتعفن والكراهية. وما كان لهذه الشخصية أن تحقق هذا الحضور والقدرة على التحول، لولا طرفي الصراع اللذان يتجاذبانه بعنف، فالساحرات الثلاثة (البوم، والنسر، والغراب) والتي تمثل قوى الشر والهلاك والعدوان، تدفع بحفار القبور للتخندق في صفها وإطاعة رغباتها والتحالف معها. والشخص (الممثل) الذي لعب دور ضمير حفار القبور، يحاول بكل طاقته رده إلى صوابه وإبعاده عن حالة الضعف والخضوع ومساعدته لاسترداد إنسانيته. التناوب بين الساحرات من جهة، وشخصية الضمير من جهة ثانية، في التأثير على حفار القبور، ليختار بين الخير والشر، بين الخنوع أو التمرد، بين الاستسلام والمقاومة، بدت في لحظات تبسيط للصراع. إلا أنها -مع تطور الأحداث- كانت العلاقة بين أطراف الصراع تضعنا في حيرة. هل نكره حفار القبور ونعتبره جزء من تحالف الشر لا أمل في التصالح معه أو مسامحته أم نتعاطف معه ونجد له الأعذار. هذه الحيرة كان المخرج يقصدها ويتقصد إيقاعنا في فخها، فهو لا يريد لنا اتخاذ مواقف متسرعة، لا ترى المغزى التاريخي لمثل هذا الصراع، والمآل الدراماتيكي الذي تضع

الكاتب: Administrator
الخميس, 17 تشرين2/نوفمبر 2011 20:36 - التحديث الأخير الإثنين, 26 كانون1/ديسمبر 2011 10:24

نفسها فيه، شخصية حفار القبور وأمثاله. كأنه أراد توصيلنا إلى الفكرة الفلسفية التي تقول، الحمقى والطغاة لا يقرأون التاريخ ولا يتعلمون منه إلا بعد فوات الأوان.
وليس أدل على ذلك من مشهد الختام حيث يكتشف حفار القبور أن من بين القتلى في الحرب التي باركها ودعى لها، شقيقه ثم والدته، يكتشف بأن الآمال والأماني التي وعد بها، مجرد أوهام وسراب متبخر، ولكنه لا يدرك هذه الحقيقة إلا بعد أن امتلأت الأرض بالقبور والخراب.
وهنا يحضر بقوة المشهدين العراقي والفلسطيني، من جهة الموت المجاني للأبرياء في الحرب المجنونة -مع اختلاف الحالتين- فالناس التي تعاني ويلات الحرب العبثية، تدفع الثمن، تنقل الأمهات أبناءها وأزواجها إلى حديقة (ملك الموتى) المقبرة، الشاهد على الظلم والجنون والويلات والعذابات التي تنهك أرواح البشر، تشتبك الصورة بين حرب تدور بين الأخوة، وحرب تدور بين الأخوة والاحتلال.
ما الذي جعل العرض مدهشاً وثقيلاً؟ ثقيلاً لأنه يحمل شحنة كبيرة من القسوة، وتجسدت في مشاهد تفيض صيغ بصرية وسمعية تعيد إنتاج المشاهد اليومية التي تقرأ وتسمع وتشاهد بكل وسائل الإعلام عن جنون الحرب واقتتال الأخوة، وأنا واحد من الناس أذهب إلى المسرح ورغباتي تحدوني لمشاهدة عرض فيه شيء من المرح وشيء من الحب والرشاقة. ولكن كيف يتأتى لمسرحية تدور أحداثها في مقبرة، وشخصياتها تكاد تقنعك بأن تشتم رائحة الموتى والأكفان والدماء التي لم تفوح من أعطاف ممثلها، والدمى التي جاءت على هيئة جثامين قتلى في عربات أو توابيت. كيف يتأتى لهكذا مسرحية أن تحمل الفرح والحب؟
ولكن وللأمانة، سألت نفسي لماذا لم أغادر العرض رغم هذه القسوة؟ حتماً كان هناك حبٌ خفي، حبٌ يعكس التضامن الإنساني بيننا كمشاهدين، وبين شخصية الضمير الذي حاول طوال فترات ظهوره على خشبة المسرح أن ينقلنا إلى فضاءات نقيضة، فضاءات تفيض بالرحمة والتسامح والتعاضد الإنساني. كم كانت لحظة مؤثرة عندما ركع حفار القبور (في ذوبة صحوة ضمير قصيرة).. ركع على الأرض ووضع رأسه في حضن الضمير. وكم كانت الموسيقى تشكل خلافاً روحياً لتمرير تلك المشاعر الجليلة بين كيانين بشريين بين توأمين روحيين، يتنافران ويتجاذبان كنقيضين، وفي لحظة كنواة بذرة من جزأين. تلك اللحظات في العرض تسللت إلى داخلي كصورة عليا من صور حب يتجاوز معاني الحب المألوفة والساذجة، إنه الحب الذي يدفعنا لتقديس إنسانيتنا، للتسامي عن الأضرار الشخصية والنظر إلى فكرة الحب كقيمة عليا تتجاوز العلاقة بين اثنين. باختصار، أن نحب أنفسنا عندما نكون أنقياء مخلصين متفانين في خدمة الحياة والبشر والأفكار والقيم النبيلة، وخدمة الأمل لنا والحب للآخرين.
كان العرض مدهشاً لأن المشاهد المتدفقة كانت تولد أسئلة، وكل سؤال يولد سؤالاً آخر، في جوٍ من الحوار المتواتر والمتوتر على ثلاث مستويات متزامنة: حوار بين الممثلين الذين يؤدون الأدوار، وحوار بين كلمات هؤلاء الممثلين، وكل علامات العرض غير اللغوية (من إكسسوارات وإضاءة وأزياء وأشياء على خشبة المسرح)، إضافة لإيماءات وحركات الممثلين. وكل هذا وعلاقته بنا نحن المشاهدين المتلقين الذين تحولنا إلى مشاركين إيجابيين، بعد أن تورطنا في الحكاية وبدأنا ننحاز ونتخذ مواقف. وأقصد بالمواقف ذلك الرفض اللاواعي والضدي لشخصية حفار القبور وما يرمز له. صحيح أننا كمشاهدين نرفض هذه النماذج، ولكن التعرية القاسية لدواخل هذا النموذج، نقلت توترنا من حضوره المكبوت إلى حضوره المعلن، شعرنا بالشماتة أو السخرية من حفار القبور عندما خابت آماله في الحانة وتم تكنيسه خارجها كنفاية.
كان مدهشاً لأن الممثلات والممثلين كانوا أكثر من مقنعين في أداءهم لأدوارهم، مع التأكيد على التباين بين ممثل وآخر. وعلى سبيل المثال، بعد مشاهدتي للعرض ما عدت أتخيل حفاري القبور يمكن أن يكونوا بأشكال مغايرة للممثل الذي أدى الدور، بكل حركاته وإيماءاته وتعبيراته عن غرائزه الفجة، لحظات قوته وضعفه كلها كانت تعكس حجم الاجتهاد في تجسيد تلك الشخصية المركبة.
وكان مدهشاً أن لغة الشعر التي استند إليها النص لم تلفت نظرنا بلحظة من اللحظات أننا نسمع شعراً، بمعنى كلاماً غير مألوف على الآذان. كان الأداء سلساً واللغة مطواعة مما أنسانا العامية والفصحى، وقربنا من عبقرية الشاعر العراقي بدر شاكر السياب وجزالة الكلمة والموسيقى في قصائده. في لحظات كثيرة شعرت بأن الساحرات الثلاثة في العرض، عصابة محترفة تملك القدرة على تضليلنا والتغرير بنا، فمرة هنّ ساحرات قادمات من أعماق المثيولوجيا كرموز لآلهة الموت والعذاب والشؤم، ومرة هن أمهات وزوجات ثكلى فقدن الأبناء والأزواج والأحبة، ومرة غانيات في حانة. كل ممثلة لعبت أكثر من دور، ولكن كل دور كان مغلقاً على الشخصية التي تؤديها ولم يجرِ خلط بينها وبين شخصيات أخرى لعبتها على خشبة المسرح. وإن كان القناع هنا والزي والضوء بطلاً من أبطال العمل الذي نجح التقنيين القائمين على تصميمات الزي والقناع والضوء في تخطيطه وتنفيذه، فإن الوظائف التي حققها فكرياً وجمالياً ونفسياً، وضعتنا أمام لحظات من الإبهار والانجذاب، حيث كانت الأشياء تحضر في وقتها لتمنح الشخصيات دعماً، يكشف أو يعمق أو يستر خباياها، أو تمنحها جماليات غير مجانية تخلق مناخات وأجواء، تتبع الأفكار والأحداث وتكملها.
كانت مدهشة لحظة الختام عندما انهار حفار القبور بعد أن اكتشف مشاركته في قتل أمه وشقيقه، وبعد أن دخلت نساء منكوبات (هن رمز لكل ضحايا الحروب العبثية)، وحطمن أسوار المقبرة ووقفن متكاتفات كتوطد يتحدى كل من يسقط الإنسانية في الوحل والبشاعة دون ضجيج تفسخ سور المقبرة، وكأن المخرج ومصمم الديكور أراد أن يقول لنا: حفارو القبور وأسيادهم يريدون لنا حياة هي أشبه بالموت، ولأوطاننا أن تكون مسورة كالمقابر، لا أمل فيها ولا خلاص لمن لا يطيع ويخضع، لمن يرفض أن يكون حفار قبور، تفسخ السور وتناثرت أجزاءه وكأن السعي إلى الحرية والخلاص من جنون الطغيان الاحتلال والعدوان والاقتتال لا يكون إلا

بهدم أسوار الخوف والصمت.

حسين نخلة في دور حفّار القبور كان متميّزاً باقتدار، ولما أدري إن كان سيقوى على تقديم شخصية على خشبة المسرح بقوّة وإبداع شخصية حفار القبور. وأمجد غانم في دور الضمير، رغم كتلته الهائلة فوق خشبة المسرح، كان يمسّ قلوبنا من الداخل وهو يقاوم نزعات الشرّ ويحاول إنقاذ حفّار القبور من مصيره المحتوم. أما الساحرات، سميرة المناطور، روان سلامة، وميسون أبو زغيب، فقد امتلكن مقدرة عالية في التحوّل من حالة إلى أخرى، وأن يكون أداؤهن مكافئاً لحفار القبور. كذلك لدينا لينا صالح وميسا عز، فقد ملئتا خشبة المسرح صخباً وحيوية في مشهد الحانة.

نعم حفار القبور كان عملاً ثقيلاً ومدهشاً.. وما أراد أن يوصلنا إليه فتحي عبد الرحمن.. وصل.